عن رحلة فراشة نحو السراج

صادق الصائغ

يقول عبد الرحيم ياسر، صنو مؤيد نعمة وقرينه في الكاريكاتير، انه يرفض تلفظ صفة"مرحوم" امام أسم مؤيد، كلما ورد على لسانه، ويضيف: " لقد اضحى بعد طول معاشرة جزءاً مني، لغةً وفناً وحواراً واسلوب عيش، وصار مستحيلاً علي تصوره ميتاً". ومثل هذا الشعور ورد ويرد في اغلب الكتابات التي تدفقت بعد موت مؤيد، وانا نفسي هتفت:"مستحيل"،عندما اخبرني الصديق كامل شياع في لندن ان مؤيد مات!! وها" ان المدى" تذكي نفس الجذوة،عن طريق اعادة نشر رسوماته، مؤكدة انه حاضر بيننا بعناد.ولعل مثل هذا الاحساس يتعزز في دواخلنا كلما تعرفنا على فنان اصيل يكون الخط الموصل بين عمله واسلوب عيشه لا ينفصلان، ومثل هذه الحالة موجودة بوضوح عند مؤيد فكأنهما- عمله واسلوب عيشه- ولدا معا.

ان مؤيد الاخلاقي، ناعم، خجول، مستمع أكثر منه متحدث،حتى ليبدو، لأول مره تلتقيه، انه من شهود هذا العالم الصامت،لكن هسيسه يعلو بضحكة خفية تكون خافتة في اول الأمر، ثم تصبح ذات طعم اليف وعذب،، وغالباً ما تتسرب نكتة الطفلة، الى محدثه، كما الى رسوماته المعدة لعدد اليوم التالي في الجريدة.

منذ اللحظة الأولى لفحص اعمال مؤيد يدرك المرء انه من الذين لم يتملصوا من الالتزام بموضوعة الحرية التي هي، بالنسبة إليه، فدية الخلق الفني. لقد مر قبل هذا بتجارب واوضاع سياسية صعبة، لكنه لم يهن ولم يستسلم، فهو من الذين يتسيرون بكبريائهم والحنو ويتمسكون بقيم الفن التي تطبع اخلاق الموهوبين. وفي هذين السياقين، الاخلاقي والفني يستعصي تصور مؤيد ميتاً. وقد يميل البعض الى احتساب موته مزحة اخرى بين مزحاته،وحتى لو تيقن انه مات فعلاً فسيكون محتملاً ان نسمح لأنفسنا بأن نتصور إنه، بعد قليل، سينهض،ليشرح لنا حقيقة ما حدث له، بعد الموت،باسلوبه المرح الساخر!!.

❖❖❖❖

الكاريكاتير جنس تشكيلي صعب، وصعوبته تبتدي من اول لحظة، في قدرته على ابقاء الفكر في حالة نقدية يقظة.ولانه يقع في خضم حياة متحركة، أي في جدل الفن والسياسة والفلسفة والموقف، فهوبكل الحسابات، فن ديمقراطي بامتياز، واحدى مفارقاته قدرته على المراوغة واللعب بالمعاني والاشكال، حتى ليمكن،بالمرونة التي في خصوصيته، تحويل الشيئ الى عكسه،فتكون الملهاة مأساة، والمأساة ملهاة. ويمكن بمثل ما يمتلك في حساسية واستغلال ان يكون عاصفاً ولا يمكن السيطرة عليه، كما هو الحال في القضية التي اثارها احد رسامي الدانيمارك الذي اطلق شرارة الكراهية واغلق باب الفهم المستعصي في اكثر من بلد اوربي، لكنه في حالة معاكسة، يمكن ان يكون حيا وانسانيا وشاعرياً،ممسكاً باللحظة الهاربة التي تبتهج فيها الروح بغتة، ويصبح في هذه الحالة، الحكمة الصحيحة التي تفرض نفسها على الجميع،بدون مناقشة.

في العالم الثالث، يواجه الكاريكاتير اقسى انواع القمع،ويقف، لهذا السبب،مضطراً في المنطقة التوافقية الآمنة، لكنه يكون عارماً ومؤثرا،عندما تتوفر له متطلباته الداخلية. واذكر لمؤيد حكاية ضاحكة تعرف مهمة رسام الكاريكاتير بالشكل التالي: رجل ساءه ان يرى كلباً ينهش المارة ويزعجهم بالنباح، فكان، بعد ان يئس من اسكاته، ان ادخل ذراعه في فم الكلب،متوغلاً الى احشائه، ثم، وبقبضته القوية، قلبه على"بطانته"،ما اضطر الكلب الى ان يقلب طريقته بالنباح، فبدلاً من ان ينبح بـ" عوعو"،كما تفعل الكلاب عادة، صار يصيح:" وعوع....وعوع"!!

وينهي مؤيد حكايته بالقول: عندما يأخذ رسام الكاريكاتير نفسه على محمل الجد تكون مهمته استخراج الحقيقة من"حلك السبع"، وإلا فلن تبقى له حقوق في رسوماته.ويبدو ان اقدار مؤيد حتمت عليه ان يقوم بهذا الدور،لكن بطريقة لا تخلو من درامية، فبين الذين يتكلمون ويصمتون في اوقات الشدة،يظهر،عادة،شخص ما،يتبرع بتعليق الجرس في رقبة الوحش،ولأن أجناس التعبيركانت، لسبب ما صامتة او مذهوله أو خائفة أو غير مستوعبة بعد، ما يجري امام العين وعلى الشاشات الفضائية فقد تعين على جنس الكاريكاتير ان يقوم بهذه المهمة، وتعين على مؤيد ان يكون الأبرز بين قليلين،ممن سيواجه الارهاب بريشة عزلاء وجسد نحيل،فكأنه بهذا، ودون قصد او ادعاء،سيكون المتقدم الى المجهول،ملء ذلك الفراغ الصامت،محارباً بالنيابة عن كل الذين آثروا السكوت،بحجة ان الظهور العلني امام الارهاب يعد انتحارا ميؤوساً منه!!.

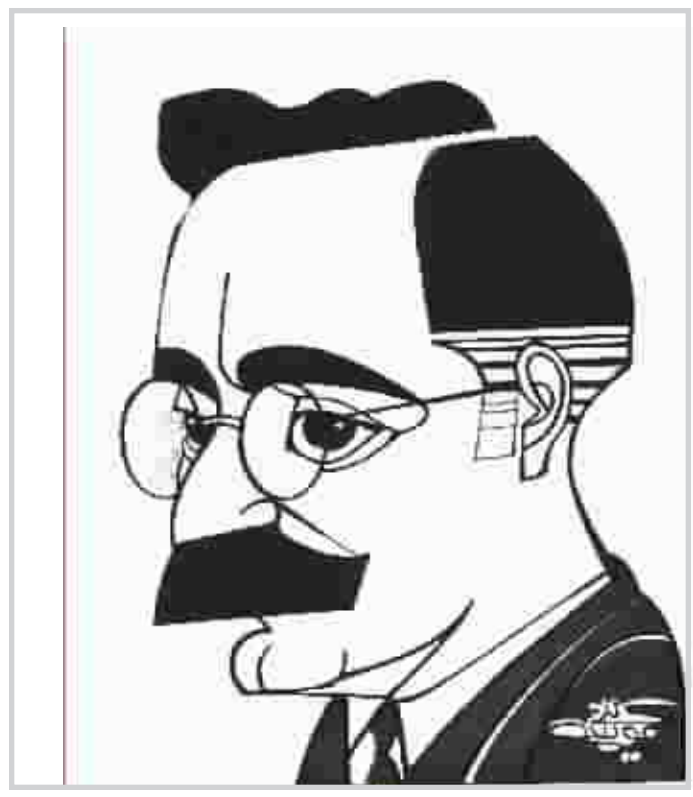

❖❖❖❖❖

لابد لمن يعرف مؤيد عن قرب، من ان يقر بانه، ومنذ البداية حمل نفسه محمل الجد، فكان التزامه اخلاقيا بالدرجة الاولى، ومنذ ان اعدم البعثيون زميله وصديقه المقرب في جريدة" طريق الشعب"، المصمم والخطاط الفنان الشيوعي سامي العتابي، بحجة انه زورباسبورت لأحد اصدقائه، من الذين ارادوا الإفلات من قبضة البعثيين الى الخارج،عرف مؤيد انه،هو الآخر، معرضٌ للمقاضاة،بنفس الطريقة. لكن ما يعرف عن الفنان، في حالات الخوف والخطر، ان يكون التحدي مَسَرتهَ المختارة. وفي الحالات التي يصعد فيها الخوف الى درجاته العليا يحتفظ الفنان لنفسه بشيء من هذا التحدي، فالوجود النزيه يقارن،حتى في هذه الحالة، بالحب، ومؤيد، المحب للحياة، وبالبصيص القليل المتروك له منها،يعد بين القادرين على اختراق لعنة الخوف المظلمة التي تثقل على الناس في ساعات الشدة، لذا،كانت رحلته في الحياة قصيرة،واشبه برحلة فراشة مضطرمة نحو سراج النور.

❖❖❖❖❖

عندما بلغ الارهاب ذروته،وصارت اصالة اسلام الزرقاوي لا تقاس إلا بتعذيب الضحية قبل الموت، والا بقلع العيون، قبل احتزاز الرؤوس، وعندما صارت كاريكاتيرات مؤيد، بالمقابل، حية ومتوفرة بين الايادي كل صباح، ومتعرضة للارهاب بسخرية نشيطة، بدأ القلق يتسرب الى قلوب محبيه. ولان الحياة بطبيعتها، غير متلاحمة،وفي بعض الاحيان مضحكة ومجنونة، فقد ترادفت في اذهان اصدقاء مؤيد اسئلة مقلقة عن جنون مؤيد أسئلة من نوع: ما الخيار المتروك لمؤيد؟هل سيدعه الارهابيون يعود الى بيته سالماً؟ هل سيجتاز الشارع،بعد اتمام عمله في الجريدة، وهو الذي لا يضع في حسبانه حساباً للاشراك المنصوبة له؟ هل سينجو هذه المرة؟

مثل هذه الاسئلة تخطر،على الأغلب، في بال زوجته واطفاله كل يوم، في وقت يكون فيه مؤيد متابعاً مشيته العادية الى البيت، وبرأسه فكرة جديد سيعالجها في اليوم التالي، وهكذا تجري،بين عالم الضحك واحتمالات الموت،تغييرات حاسمة في الوعي والعقلية.

يقول عبد الرحيم:

كنت اخاطبه بالتلفون قائلاً:

- معود... اهلك خبصوني بالتلفونات.. ألا تتحسب للخطر؟

فيجيب ضاحكاً:

هاي شنو رحيم؟!.. انت هم بديت تخاف؟!

❖❖❖❖❖

في الرسم الضاحك يجب القول ان شجاعة مؤيد كانت واعية وملتزمة. فاختيار الارهاب،بهذه الغزارة،موضوعا يومياً للسخرية، يصيب،حتى القارئ،بقطع النفس، وانه بهذا، يعيد طرح سؤال" ماهو الكاريكاتير، بمستوى عقلي وجمالي واخلاقي، وهو هنا،لاول مرة في تاريخ الكاريكاتير العراقي، يعطي للسخرية الضاحكة ما كان ينقصها: قيمتها العقلية الرصينة.

❖❖❖❖❖

لعل اهم ما يميز كاريكاتير مؤيد هو اشتغاله على ثنائية السخرية والالم في وقت واحد، فنحن،حتى تحت سطح التسلية، نتحسس لمسات للالم الصامت، الكامن داخل مؤيد والمتسرب الى السطح على شكل ضحكة متهكمة، تتحول، في النهاية، الى تأمل. في السينما،مثلاً، نرى تشارلي شابلن يقلب الاخطاء المضحكة الى تفكير، وفي المنلوج الضاحك ننتبه الى ان عزيز علي، فناننا العظيم، يخضع التهكم الاسود الى موازنة عقلية،بحيث يتولد، بالتالي، عطف انساني وربما شعرايضا.إن مؤيد،في هذا السياق يفعل الشيئ نفسه. واذكر ان عزيز علي تحدث مرة عن ضرورة هذه الثنائية بالقول:"بعض الناس يظنون ان الساحة التي ولجها هي التسلية، وانا،اذ اسلم للمستمع بهذا الحق –حق التسلية –احرص على ان اشبعها بما تحويه من مرارة، فبدون هذا العنصر يتحول المنولوج الى مجرد طيش فحسب.

ان مؤيد يشتغل على الخط نفسه، فهو لا يكتفي بانتاج مفارقة تفضي الى ضحكة، بل يتوصل الى ملامسات حانية تحتوي على ألم وحنو وحب وشجاعة، يخصصها عادة للمضطهدين والفقراء والمحرومين.

❖❖❖❖❖

ينتمي مؤيد الى جيل الستينيات الباحث،في الشعر والمسرح والتشكيل،عن منهج فني واخلاقي يخرج عن حدود التوافقية الصامتة التي فرضها العسف، ابان حكم صدام حسين. وعلى طراز المنتمين الى صفوف الحركة الوطنية انحاز مؤيد الى اليسارالمفكر، اخذا منه فلسفته الجمالية والاخلاقية، متجنبا، رغم اتجاهه التشبيهي واقعيته المباشرة التي انتهت الى طريق مسدود في نهاية الخمسينيات على يد الرسام غازي.لقد كان دخول مؤيد الى عالم الكاريكاتير اشارة ملفتة لدخول حركة الحياة في الجسم الميت. كان غازي، قبل مؤيد، بمقياس الزمن الميكانيكي، رائدا في الجيل الاول، فرسوماته الواقعية الباحثة عن الرمز الشعبي قد اجتذبت اهواء الناس، رغم ان سخريتها القاسية كانت، في اغلب الاحيان، تنوش البسطاء من المقهورين والمعذبين، ونظراً لخبرته السياسية البسيطة فقد كان يسمح لنفسه بتبرئة الطبقة الحاكمة من أي عسف او دنس اوخطيئة. اما مؤيد فقد احتفظ بالاركان الانشائية الموجودة في لوحة غازي، واهمها التشبيه الواقعي، إلا انه استحضرها برؤية جديدة.لقد ادخل عليها الوعي والتشكيل والتكوين بشكل خاص، معتمداً تناقضات الاسود والابيض، مراعيا في الابعاد توازن الكتل، مدخلا الظلال في التفاصيل، أما اهم ما انجزه فهو تحريك ما هو ثابت امام العين، وهو الجديد في الكاريكاتير العراقي ككل. وبهذا الانجاز ابقى المسافة فاصلا ضروريا بين جنس الكاريكاتير واللوحة التشكيلية.

ومع ان التشبيه هو صفة اساسية في الكاريكاتير، إلا ان تجنب النقل المباشر والتقليد والتكرار هو ما يفرد لمؤيد خصوصيته. ويقول مؤيد، بهذا الصدد انه يحرص على ابقاء متفرجه في حالة يقظة، فعن طريق تسريب عنصر التوتر الى مناخها الداخلي، وعن طريق التحريك الداخلي يتوصل الى ايجاد صلات متوترة بين الشخوص، بحيث تنتقل شحنات الانفعال من الاجسام الى تفاصيل الوجه،ثم الى المناخ العام.

لقد توصل مؤيد، في الفترة الاخيرة، الى ذروة نضوج لم يمهلها الزمن لتكون مكتملة، إلا انها، بالتاكيد،كانت مهيأة للانفتاح على آفاق جديدة، واذا لم يكن مؤيد خلق لنا نموذجاً شعبياً يمرر عبره الاحداث والمشاعر وردود الافعال، كما هو الحال عند ناجي العلي في شخصية حنظلة، فانه ملأ رسوماته بلغة فنية حية،وديناميكيات تتحرك في اكثر من موضع في الذاكرة والخلفيات غير المرسومة، جاعلا من الصراع بين ما هو رجعي وتقدمي، بين ما هومحدث وقديم ثيمته الضرورية والمحببة.

❖❖❖❖❖

تقول المفارقة ان انجز خطوة اخرى في طريق المصاعب،فقد نجا من موت متوقع على يد الارهابيين، لكن،ليختطفه منا موت آخر، يستعصي على محبيه ومترقبي تتابع الفصول تصور مكانه خالياً، وحمدا لله، فلا يزال لدينا في هذا الحقل الصعب والنادرخضيرالحميري وعبدالرحيم ياسر، ومثلما لا يستطيع عبد الرحيم ان يتصوره ميتاً، يصر المحبون ايضا على اعتبار موته مجرد مزحةعابرة، وهذه ميزة الارواح الشفافة التي، عبرابداعها،يختلط موتها بحياتها،حيث لا يكون موتها موتاً،بل حياة أخرى تثير فضول الاجيال القادمة من رسامي الكاريكاتير، خاصة اولئك المصرين على ارتياد نفس الدرب الذي سلكه مؤيد. ولان مؤيد من هذا النوع فسنظل نستعذب شعورنا بأنه لا يزال حياً بيننا، وسنظل، كلما تصفحنا "المدى" نستعذب حضوره، بصوته الضعيف وابتسامته التي تطفو على كل قلب، ليروي لنا، على طريقته، حقيقة ما حدث له بعد موته. وقد تظل ظلاله مهومة في رسومات الاجيال القادمة، ممن تأثروا به وأحبوه.

تحذيرٌ ومقاربة

محمود أمين العالم

أيها القارئ العزيز، حذار أن تصدِّقَ عنوانَ هذا الكتاب! فكتابته لم تتم وتتحقّق، كما يزعم عنوانُه، بالطباشير! فهي ليست بالكتابة السَّطحية التي يمكن أن تُمسحَ أو تُنسى بمجرد مغادرتها. بل هي بالحفر، وفي غير مغالاة، كتابةٌ بالحفر العميق في حقائقَ وظواهر تجاربنا الثقافية القومية والإنسانيّة، التراثية والمعاصرة عامة، التي تظلُّ تتابعنا وتلاحقنا بعد قراءتها. ولهذا أرجو أن تتأهَّبَ في قراءتك لعمليتيْ هدم وبناء- معرفيًا وموقفًا في وقت واحد- حول العديد من همومنا الثقافية والحياتيّة السائدة والمهيمنة.

والحق أن قراءتي لفصول هذا الكتاب، على تنوعها ووحدتها معا، كانت لحظةَ معرفيةً حضاريةً متنامية، تجمع بين تراث الماضي الإنساني بعامة، وليس القومي فحسب، وأزمة الحاضر وجسارة استشراف المستقبل. فلقد وجدتني في حضرة كاتبة على مستوى رفيع من الامتلاك العميق الحي لثقافتنا العربية، لا من حيث لغتها رفيعة المستوى فحسب- وهذا أمر ندر عند العديد من كتابنا- بل في تراثها الإبداعي الفكري والأدبي والبلاغي كذلك، فضلا عن معرفتها وتمثلها الجوانب المهمة من التراث الثقافي الإنساني الغربي والشرقي على السواء، وبخاصة في توجهاته وخبراته المتمردة والمتجاوزة للمفاهيم السلطوية والأحادية والمركزية والإطلاقية والغائية المفروضة. واستطاعت الكاتبة باقتدار أن توحد في هذا بين أحدث الخبرات الإبداعية في مجال التعبير الأدبي من ناحية ومجال فن المعمار الهندسي- وهو واحد من تخصصاتها- من ناحية أخرى. هذا الفن الذي كان طليعة الاتجاه ما بعد الحداثي وملهمه في الفن والأدب على السواء، هذا فضلا عن استبصارها الحميم بالتداخل بين العلم من ناحية والفن والأدب من ناحية أخرى. إنها بحق محاولة جادة عميقة تكشف ما بين مختلف المنجزات والحقائق الإبداعية من تواصل وتفاعل خلاق. ولهذا تقول الشاعرة والمعمارية "فاطمة ناعوت" في فصل بديع من فصول كتابها هذا بعنوان "العمارة والشعر": " حين قرأت حوارات أفلاطون الأربعة لأول مرة، اندهشت كثيرا لأنني لاحظت أن آلية الحوار وتسلسله خطوة خطوة، وصولا إلى النتائج والنظريات، تتطابق مع آلية تحقيق نظريات الهندسة الفراغية ونظريات الجبر والمنطق الرياضي". على أن هذه الرؤية الكاشفة الحميمة بين مختلف المنجزات العلمية والفنية والأدبية التي تتميز بها هذه الكاتبة لا تقف في كتابها هذا عند حدود العلاقة بين الحوار الأفلاطوني والنظرية الهندسية، وإنما نتبينها كذلك منهجا عاما في طرائق تناول العديد من القضايا وبخاصة معالجتها البالغة الخصوبة لقضية الترجمة في مقال "مرآة ابن رشد" على سبيل المثال. فالترجمة عندها ليست مجرد نقل المخطوطات والكتب من لغة إلى لغة بل هي "العمل على احتلال درجة أرقى من درجات العبور والاختراق كي تلج وتنهل من "الجوهر العميق" لروح حضارة أو فكر ما."، وتقول أيضا: " وبإجراء قراءة سريعة للتاريخ، سوف نجد ارتباطا، يكاد يكون شرطيا، بين ازدهار ورقي مجتمع وبين انتعاش حركة الترجمة فيه وتكريس مبدأ الاتصال الثقافي مع الحضارات الأخرى. ولنا في واقعنا العربي خير مثال. لم تنتعش الحضارة والفكر الإسلاميان مثلما حدث في عصر المأمون (٨١٣-٨٣٣م)، الذي جاهر باعتناق فكر المعتزلة بما ينطوي عليه من إعمال "العقل"، عوضًا عن "النقل" السلفي الجامد الأعمى، وإزكاء شعلة التنوير بين أرجاء الأمة".

وإذا انتقلنا من هذه القضية العامة، أي قضية الترجمة، سنتبين نفس المنهج الكاشف عن العلاقات والتفاعلات على طول هذا الكتاب- على تنوع موضوعاته- في قضية جزئية هي قضية "النحو والصرف" في اللغة العربية. ففي مقال "ما وراء سقوط سيبويه"، الذي شاركت به الكاتبة مشاركة إيجابية في الندوة حول كتاب شريف الشوباشي "لتحيا اللغة العربية، يسقط سيبويه"، تعرض فاطمة ناعوت لقضية النحو عرضا نتبين فيه نفس هذا المنهج الحريص على كشف العلاقات والتفاعلات بين عناصر القول وأبنيته، فتقول: " من الدلائل الأخرى على عبقرية الموسيقى في علم النحو مادة "الممنوع من الصرف"، ليس فقط في الاختيار المدهش للكلمات التي يجب ألا تُصرف لدواعٍ موسيقية مثل (مساجد- كنائس –مصر- مكة - سجاجيد.... الخ)، لكن الأجمل هو علامة (جر) تلك الكلمات وهي (الفتحة) عكس ما هو سائد في اللغة وهي (الكسرة) كعلامة للجر". على أنها تنتهي بحكم عام وهو أن أزمةَ الخطاب اللغوي العربي مرتبطةٌ بتدني المستوى الثقافي للفرد العربي في الزمن الراهن. غير أن الكتاب لا يقف عند الأحكام العامة، وإنما يحرص كذلك على تقديم الأدلة التطبيقية لإثبات مفاهيم بعينها في بعض القضايا الإشكالية وخاصة قضية الترجمة، بل قضية الفهم عامةً، وما تتعرض له اللغة تاريخيا وجغرافيا من تحولات وتحورات. ولهذا كما تقول فإن " اللغةَ تحورُ نفسَها وتعيدُ خلقَ ذاتِها بشكل مستمرٍ ببطءٍ حينًا، كما تراكم الغبار فوق سطحٍ مصقول، وبسرعة في حين آخر، كما فتوحات البلاد، (....)". ففي اللغة العربية كمثال فقدت المجازات والكنايات القديمة دلالاتها ففقدت شرعيتَها بل ومعناها." ولهذا "فالقارئ لعمل أدبي مترجم يجب أن ينتبه إلى أنه لا يقرأ الأصلَ عينه بل يقرؤه عبر حواجزَ أفقية (جغرافية) وكذا رأسية (زمنية). ولكنْ إلى أي درجة من الدقة ومطابقة الأصل صيغَ هذا العمل؟ هذا سؤال على جانب من التعقيد كبير حيث الفيصل غائب. ولكنني كقارئة لا أتوقف طويلا عند هذا السؤال حين أجدُ تباينات في طرح العمل نفسه عبر ترجمات عديدة له." وهنا تتدخل فاطمة ناعوت "كقارئة" لكن بجسارة "الكاتبة" فتقول بصراحة محببة: "بل إن هذا الأمر قد يبهجني قليلاً ويثير مكامنَ المكر في داخلي فأوسعَ مساحة الاجتهاد لأطرحَ ذهنيا- ترجمةً مغايرةً قد يكون المبدعُ بريئاً منها!". ولهذا تسارع بتقديم مثال يبرهن عمليا على أن الترجمة- كما تقول- فعل تحول أفقي ورأسي بأن تختار مشهداً مشهوراً من الأدب الكلاسيكي القديم، وهو اللقاء الشهير الذي تم بين هكتور وزوجته في الكتاب السادس من إلياذة هوميروس، في ترجمات عديدة له من الإغريقية القديمة للإنجليزية بلغت إحدى عشرة ترجمة مختلفة بين الشعر والنثر عبر مترجمين كبار من بلدان شتى، ثم تقوم بترجمتها جميعا من الإنجليزية إلى العربية، لتؤكد ما تقول به من أن طبيعة فعل الترجمة هو فعل إبداع يخضع للفروقات والتباينات أفقيا ورأسيا. ولهذا أخذت تتكشف تلك التباينات بين الأصل الإغريقي ومختلف الترجمات الإنجليزية فيما يؤكد ما ذهبت إليه الكاتبة. وهو جهد رفيع المستوى وعميق الدلالة قامت به الشاعرة والمترجمة فاطمة ناعوت دعما لتأكيد- كما تقول- "معنى التباين الأفقي الجغرافي بين منظومات اللغات المختلفة من ناحية وأيضا التباينات الرأسية الزمنية التي فيها تتغير طرائق الخطاب وتتحور اللغة ذاتها عبر العصور."على أنه من أبرز قضايا هذا الكتاب الخصب، قضية الشعر الجديد أو ما يسمى قصيدة النثر التي تدافع عنها ناعوت لا باعتبارها شاعرة فحسب، وإنما أيضا من زاوية تجدد الخبرات الإنسانية تحررا من القيود التقليدية، واعترافًا بالتنوع والتجدد في الفكر والسياسة والاجتماع والفنون على السواء.وهكذا تخرج بنا في النهاية من قضية حرية التعبير الأدبي والفني إلى حرية التعبير الفكري عامة، وذلك بمناسبة اعتقال الشاعر السعودي "علي الدوميني" لمجرد أنه تجرأ ووقع على وثيقة تطالب السلطات السعودية بإجراء إصلاحات ديمقراطية داخل البلاد وإطلاق حرية الإبداع الأدبي تجديدا للحياة ذاتها!

ولهذا يكاد ينتهي هذا الكتاب العميق المسؤول الممتع بلقاء حميم بين "الشعر والحرب"! فتقول: " أليس الشعر حربًا على تقليدية اللغة؟ والصورة الشعرية الميتافيزيقية أو الفانتازية حربًا على المنطق؟ ألا يعد المجاز والاستعارات والتقنيات الشعرية مثل تراسل الحواس والسوريالية واللازمنية وغيرها من الأدوات والتيمات التي درج على استخدامها الشعراء لونا من الجموح والانقضاض على الواقع والصراع ضد المألوف؟ بل أليس الشعر ذاته محاولةً لهدم العالم وإعادة بنائه؟ (...) إن الفن بشكل عام هو حرب ضد العادة. فالاعتياد هو كعب أخيل الفرح، وأولى الخطوات نحو الموت." وهكذا يكون الشعر وهكذا يكون الفن بعامة كسرا للمنطق وحربا ضد المألوف، كما يقول هذا الكتاب. فهل انتهى الكتاب بهذه الكلمات والرؤى العامة؟ لا. فما أكثر الكنوز الفكرية الأخرى التي يمتلئ بها هذا الكتاب الزاخر بالأفكار والقيم والمعارك دفاعًا عن الحياة والحرية والإبداع والتقدم المعرفي والإنساني إلى غير حد. هذا كتاب يعد إضافةً عميقةً وجادةً ملهمةً إلى تراثنا النقدي العربي المعاصر وتستحق عليه الشاعرة والناقدة فاطمة ناعوت كل تقدير واعتزاز.

رسالة لندن

الموسيقى توحد العراق

المطرب كريم حسين باغانيه الريفية والحديثة وصوته ذي المساحات الواسعة. واهتز الحاضرون طربا بالاغاني العذبة ورافقوه بالغناء والتصفيق. وانصت الحضور بشغف للحوار الشجي الذي دار بين الموسيقار احمد مختار (يناديه طلبته واصدقاؤه الاجانب بـ المايسترو تحببا) على العود والفنان حسن فالح على القانون وبراعته المدهشة. كان الحوار يجري بصوت مهموس تارة ويتصاعد عالياً تارة اخرى. وعراقيون كثر هم على الفة بابداعات احمد مختار الموسيقية و منها الاشراف على هذه التظاهر الموسيقية.

واختتم الحفل بمفاجأة ابهرتنا حلاوتها. فرقة سومر التي تجيء لاول مرة من السويد الى لندن. لم نكن نعرف عنها شيئا رغم شهرتها في الدول الاسكندنافية. وابدع قائد الفرقة طلال عبد الرحمن في اداء الاغاني الصعبة، لكن ما هبط علينا كالصاعقة الاصوات العذبة للمغنيتين الاجنبيتين (أنا) و (ماريان) اللتين ظلتا تصدحان باغان عراقية مثل (غريبة من بعد عينج يا يمة.. هذا الحلو جاتلني ياعمة.. يابابة اشلون عيون عندك يابة) كان يصعب حتى العثور على اخف لكنة في لفظهن لكلمات الأغاني! لقد صفق الحاضرون وقوفا وطويلا من الانتشاء عند نهاية وصلتيهما الغنائيتين. كان هذا الكرنفال خاتمة لاسبوع الموسيقى العراقية الذي جرى بين ١٩-٢٣ حزيران. لقد رعت المهرجان جامعة لندن (سواس) قسم الموسيقى و" برنامج رازيت للثقافة من اجل السلام " و بأشراف الموسيقي احمد مختار صاحب الفكرة الذي عمل طويلا وبدأب منذ أكثر من عام للتهيئة للمهرجان وبالتالي الى نجاحه الرائع. بدأ اسبوع غصت قاعة برونواي مساء الجمعة ٢٣ مايو (ايار) بقوس قزح عراقي من العرب والاكراد والتركمان: شيعة وسنة ومسيحيين وصابئة ويهوداً يجمعهم عشق العراق وموسيقاه وأغانيه وتراثه. ومن الاجانب: انجليزاً وايرلنديين وطليانا ويابانيين... الخ مفتونين بسومر وبابل واشور والف ليلة وليلة. طلعت علينا فرقة (انهار بابل) لتصدح بموسيقى واغان ارامية وعبرية ويهودية عراقية.

وتألقت الدكتورة سارة مناسى بقيادة الفرقة والعزف على الايقاع. فيما تصاعد صوت مغنية الاوبرا (كميلية) ليحيلنا الى ايام بابل ويسحبنا مع مرافقيها المغنين الرجال عبر العصور الى حاضرنا الراهن. وتساءلت: من اجاز اقتلاع اغلب هؤلاء بالقوة ليوطنوا في ارض غريبة حلم غرباء غربيون بايجاد وطن بني على خرافة منسية. هؤلاء الذين حافظوا على تراث الاجداد والاباء والذي يتعرض يوما بعد يوم للنسيان والانقراض. اطل بعدها صهيب هاشم الرجب يعزف على (الجوزة). هذه الالة العجيبة التي سحرت الغربيين غرابتها. وقدم صهيب مقطوعات ذكرتنا ببغداد العتيقة واثارت بنا الحنين. واتحفنا النجم العراقي الموسيقى بمحاضرة قيمة لخبير الموسيقى حسقيل قوجمان الذي قدم شرحا وافيا عن فنون المقام: الفصول، الايقاعات،الآلات المستخدمة واهم مطربيه وعازفيه. وسبق لقوجمان ان اصدر كتاباً بعنوان " الموسيقى المعاصرة في العراق" و مؤخراً صدر له كتاب "المقام: الموسيقى التراثية للعراق" بالانجليزية. و في اليوم التالي قدم البروفسور اون رايت وهو احد اهم الاساتذة في علم موسيقى الاعراق والشعوب في العالم، ويدرس الموسيقى واللغة العربية في جامعة سواس. واستعرض رايت تاريخ الموسيقى العربية منذ العصر العباسي متطرقا الى ماجاء في كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ومعرجا على الموشحات الاندلسية نزولا الى الوقت الحاضر مدعمة بالشواهد المكتوبة والتسجيلات القديمة. واقام احمد مختار يوم الاربعاء ورشة عمل موسيقية، ومختار استاذ نظريات الموسيقى العربية ومادة الايقاع ومادة العزف العملي على العود في سواس. شرح خلال الورشة الالوان الموسيقية في العراق وتطرق الى الاطوار الريفية التي تؤدى في الجنوب والغناء البدوي والكردي والموسيقى الالية الصرفة المستخدمة في العراق كما تحدث عن خصوصية الانغام الموسيقية في العراق، واشار الى بعض الايقاعات العراقية النادرة وخصوصياتها ايضا.اما الدكتورة سارة فقد قدمت في اليوم التالي شرحا وافيا عن الملحنين العراقيين اليهود الذين قدموا للموسيقى العراقية الحانا بقيت خالدة لحد يومنا هذا مثل (هذا مو انصاف منك) لصالح الكويتي وعن الموسيقيين اليهود الذين اسسوا الكثير من الجالغيات البغدادية والفرق العراقية. لقد شابت المهرجان نواقص قليلة وعد مختار بتلافيها في المهرجان السنوي المقبل للموسيقى العراقية. وقد علل غياب الموسيقى الكردية الى الاعتذار في اللحظة الاخيرة ولاسباب شخصية لعازفة الهارب والمغنية تارة الجاف والعازف المدهش حسين الزهاوي واخيرا لابد من تقديم شكر خاص للموسيقار احمد مختار على جهوده القيمة ودعوة الموسيقيين والمغنين العراقيين كافة الى تقديم اقصى الدعم وكذلك الجهات المسؤلة في الحكومة العراقية التي لاتبدع الا في مجال المحاصصة الطائفية الكريهة والقادة السياسيين العراقيين الجدد الذين لانعرف من اي مستنقع جاء بعضهم في غفلة من الدهر والذين يبذلون جهودا خلاقة لجر المجتمع العراقي الذي لم يعرف التمييز الطائفي او الديني او العرقي الى حمام دم. ويبقى الفنانون والشعراء والكتاب والمثقفون الاحرار املنا في تقديم ابداعات العراقيين داخل الوطن وخارجه.

سعدي عبد اللطيف
لندن